الأسلوب القصصى

بقلم الدكتور أحمد ضيف

تحسب الأسلوب القصصى من أعظم أنواع النثر فى الكتابة الأدبية عند جميع الأمم؛ ولكن أدباء العرب لم يعنوا بهذا الأسلوب إلا فى العصر العباسى، إذ لم يكن للقصص أثر يذكر فى عصور اللغة العربية قبل ذلك — ولاتحسب قصص الزباء وسطيح وأخبار الجن وأيام العرب من هذا النوع، لأن هذه قصص تاريخية ليست مكتوبة بأسلوب أدبى منمق، ولا بقلم كاتب واحد معروف، بل رواها الرواة على أنها حوادث من التاريخ، وغير وبدل كل واحد فيها على حسب رأيه وأسلوبه.

على أن الأسلوب القصصى ظهر فى آدابهم وبلاغتهم منذ ظهر أول كتاب فى هذا اللسان المبين، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم؛ فقد جاء القرآن بكثير من القصص التى تحسب من نماذج الكتابة البليغة، وأساليبها الفنية البديعة، المحتوية على كثير من الأحوال الاجتماعية والتاريخية لقصص: فرعون وموسى ويوسف وإبراهيم وعيسى ومريم وأصحاب الكهف وسليمان والنمل وغيرهم.

لكن لم ينسج على منوالها أحد من الكتاب؛ لأن الأدباء ونقاد الأدب، لم يرشدوا الكتاب إلى هذا النوع من الكتابة الفنية، كما أرشدوهم إلى نظام القصائد القديمة، وجعلوها نماذج للشعراء، ولم يمر بخاطر كاتب أن يجول فى هذا الميدان؛ ولكن كان لظهور بعض القصص التى نقلت عن الهندية والفارسية أثر عظيم، فقد نشرت فى الأدب العربى بأساليب مختلفة وفى مواضع مختلفة بعضها أعجمى وبعضها عربى.

وسبب انتشار هذه القصص، ولا سيما الأعجمية منها، أن اندس بين العرب أيام الدولة العباسية كثير من الأجانب الدخلاء وأكثرهم من العامة الذين يميلون الى الأخبار الخرافية والأخيلة الواسعة.

وكان التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب يحملون شيئاً كثيراً من هذه القصص وينشرونها فى المجامع بين العامة والخاصة، حتى سرى الميل إليها فى نفوس الجمهور، فأخذوا يحاكونها فى أحاديثهم، وأخذ الخاصة ينسجون على منوالها فى بعض كتاباتهم، ثم زاد الناس على هذه القصص، وأضافوا إليها شيئاً من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية؛ وهكذا أخذ ينتشر هذا الأسلوب القصصى بين العامة، حتى امتلأ باللهجات العامية فظهرت فيه حكايات

هى خليط من الحياة الفارسية والهندية والاسلامية؛ واختص بعض الكتاب إبان العصر العباسى بكتابة الأسمار والأساطير على ألسنة الناس والطير والبهائم؛ فمن هؤلاء الكتاب: عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعلى بن داود؛ ومن أشهر ما كتب فى ذلك أو نقل إلى العربية كليلة ودمنة.

ويجمع هذا النوع من القصص كتاب « ألف ليلة وليلة » الشهير، الذى هو مجموعة قصص مختلفة من أصل هندى وفارسى أضيف اليه شىء من الحياة الاسلامية، وقد كتب بأقلام مختلفة فى أزمنة وأقطار مختلفة، ثم انتزعت منه عدة قصص على حدة وانتشرت بين قراء العربية.

وهذا الكتاب أخذ عن أصل فارسى اسمه «هزار افسانه» ومعناه بالفارسية ألف خرافة؛ ولما نقلت حكاياته إلى اللغة العربية تناوله الناس وصنفوا فى معناه وكتبوا على مثاله.

وكان أدباء العرب يعتبرونه «كتابا غثا باردا» كما روى ذلك المسعودى فى «مروج الذهب» وابن النديم فى «الفهرس».

وعلى الرغم من انتشار هذا النوع، فقد بقى غريبا عن اللغة العربية الفصحى، لم يتمكن أسلوبه من نفوس الكتاب؛ ولم يتمش فى عصور الأدب كما تمشت أنواع الرسائل الأدبية الأخرى؛ على أن أسلوبه دفع بعض الكتاب إلى أن يكتبوا بعض سير العرب وتواريخهم بهذا النمط؛ فكتب بعض العامة والخاصة، أو كلاهما معا قصص: عنترة، وبكر، وتغلب وغيرهم، وغلب على هذه القصص الأسلوب الخرافى الذى أورثوه من القصص الأعجمية فامتلأ بالمبالغات والخرافات، وأكثر هذه القصص لم يعرف مؤلفوها ولا كتابها؛ فمنها قصة السندباد البحرى وقصة عجيب وغريب وقصة قمر الزمان بن الملك شهرمان وقصة الأربعين الذين ملكوا الدنيا وحكاية مدينة النحاس وغيرها مما أخذ عن الأصل الفارسى لألف ليلة وليلة.

ومنها قصة الزبرقان بن بدر وقصة الزير سالم وقصة أبى زيد الهلالى مع شرف العربان وقصة التاجر على نور الدين وقصة حسن البصرى الصائغ وقصة السبع تخوت وسلطنة دياب وقصة أبى زيد وتملك الأربعة عشر من بعد قتل الزناتى وغيرها مما أخذ عن الحوادث العربية وتاريخها.

أما قصة عنترة فينسبون روايتها إلى الأصمعى فى أواخر القرن الثانى من الهجرة، وهى أقرب إلى وصف الحياة البدوية من غيرها، وعلى الرغم من أسلوبها الملحون قد احتوت على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأخبارهم وأوصاف حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم من كرم وشهامة وميل إلى الانتقام، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وعلى جملة أحوالهم الاجتماعية والتاريخية مع كثير من المبالغة فى ذلك.

وهذا يدل على أن الذوق الأدبى فى كتابة القصص كانت بذوره قد بدأت تثمر فى نفوس الكتاب؛ ولو أن هذه القصص وأمثالها ليست باللغة الفصحى لكانت من أعظم فنون الأدب فى

اللغة العربية ؛ ولكنها بأسلوبها هذا لاتحسب من اللغة العربية الفصحى، على الرغم مما بها من الأشعار والأخبار والأمثال وبعض الأساليب الصحيحة .

ومن هذه القصص مقامات الهمذانى والحريرى وما هو على أسلوبهما، غير أن هذا الأسلوب كتب بعبارة عربية صحيحة، وقد احتوت هذه القصص على شرح بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس، ولكن لم يكن الغرض الأول منها الكتابة القصصية الفنية التى تشرح صور الحياة والاجتماع، بل كان غرض الكتاب منها على مايظهر جليا إظهار البراعة فى أساليب الكتابة المسجعة، وأنواع الشعر الصناعى وتنميق الأسلوب .

على أن هذا الأسلوب القصصى المسجع، شاع فى أواخر الدولة العباسية، أى وقت انحطاط أسلوب الكتابة النثرية الفنية، وتمكن السجع وأنواع البديع من نفوس الكتاب فقيد كثيرا من الكتاب باتباع الأساليب المسجعة. ومهما يكن من أمر قصص الهمذانى والحريرى من حيث احتواؤها على بعض المسائل النفسية والاجتماعية فهى تحسب قصصا لغوية لاشتمالها على كثير من غريب الصناعة اللفظية أكثر من اعتبارها قصصا فنية اجتماعية ؟

أحمد ضيف

رسائل باريس

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٢٩٣)

حينما يحمل إليك خطاباً ينتظر منك البقشيش ! والأغرب من هذا أنى كنت جالساً فى حجرتى أول أمس وإذا بالباب يدق ففتحت فوجدت (تلغرافجى) فسألته أن يعطينى التلغراف إذا كان لى . فقال : ليس معه لى تلغراف ؛ وإنما أتى ليأخذ الهدايا ... ولما رأيت فى يده أوراقاً من ذات العشرة فرنكات فهمت نوع الهدايا التى يقصد ... وطبعاً أعطيته (اللى فيه النصيب) وأمرى إلى الله ، مع أنى لم يسبق لى شرف التعرف به ولم أتعامل قط مع شركة التلغراف فى باريس .. نهايته، الشاهد .. ان كل شىء هنا محسوب وليس عندهم (حاجة لوجه الله) ...

***

لقد أطلت ياأخى ، فمعذرة . ومع ذلك فقد بقى فى النفس أشياء كثيرة وقد يجمل بى ألا أذكرها، وإن كانت الأمثلة عليها حاضرة بالذاكرة ، ولكنها ليست مما يشرف باريس، وكلها تنطق بأن العواطف النبيلة التى كثيراً مانقرأ عنها فيما تخطه أقلام الافرنج هى هنا شىء لايعدو الصحف والأوراق ، وأن المدنية الغربية ليست فى كثير من الأحوال معياراً لرقى فى الطباع ولا نبل فى الأخلاق ، وأن مصر وبلاد الشرق لم تزل مهبط المدنية الروحية المبرأة عن أغلال المادية ، كما كانت بالأمس مقر الأديان والحكمة والجمال .

باريس عثمان أمين